الشـــر

٢٣ ــ ليس أيسر على الفلاسفة من أن ينكروا وجود « الشر » ، بدعوى أنه حقيقة سلبية محضة ، أو عدم فارغ لا قوام له ، أو « خير » مقنع لا بد من إزاحة النقاب عنه ! ولكن إنكار وجود « الشر » لن يمنعنا من أن نتألم ، ونحزن ، ونمرض ، ونشقى ، ونوارى أحبابنا التراب ، وننحدر إلى الهاوية يوما بعد كل هذا العذاب ! وسواء أجال الإنسان بصره فيما حوله ، أم نفذ بعين التأمل إلى أعماق نفسه ، فإنه لا بد فى كلتا الحالتين من أن يرى جمهرة من « الشرور » التى يمسك بعضها بيد البعض الآخر ، وكأنما هى تريد أن تضرب حصاراً منيعا حوله ! وليس يكفى أن يدير الإنسان ظهره لكل تلك « الشرور » ، حتى يبدو له « الخير » وحده بصورة الحقيقة الإيجابية التى تتمتع بنعمة الوجود ، وإنما نحن نشعر فى كل لحظة بأن جذور الشر متأصلة فى أعماق الوجود : لأن الحيوان يتألم ، والإنسان يشقى ، والعالم يفنى ، والوجود كله (على حد تعبير شوبنهور) يحلق فى ضباب العدم الكثيف ! . وليس التأمل الفلسفى نفسه سوى ضرب من « الدهشة الأليمة » : لأن ما يدفعنا إلى التفلسف ، إنما هو إدراكنا لما فى الوجود من ألم وشر أخلاقى . ومهما حاول البعض أن يظهرنا على ما بين الألم والشر الأخلاقى من علاقة متبادلة قوامها العدالة ، بل مهما قيل لنا إن من شأن الخير أن يقوم بالتعويض عما فى الحياة من آلام وشرور ، فإن « الشر » لا بد من أن يبدو لنا بمظهر شىء هو فى حد ذاته ما كان ينبغى أن يوجد على الإطلاق ! وإذن فإن ما يخلع على الدهشة الفلسفية كل قيمتها ، وحدتها ، وسورتها ، إنما هو الشر الأخلاقى ، والألم ، والموت . ومعنى هذا أن المشكلة التى تثير لدى البشرية قلقاً عنيفاً هيهات لكل النزعات الشكية أو النقدية أن تهدئه أو أن تخفف من غلوائه ، إنما هى « مشكلة الشر » ..

أسس أنثروبولوجية وسيكولوجية .

أما كلمة « إيديولوجيين » Idèologues فقد ظهرت لأول مرة حينما أراد نابليون أن يحقّر جماعة من الفلاسفة الذين كانوا يعارضون أطماعه الاستعمارية ، فأطلق عليهم اسم جماعة « الإيديولوجيين » . ومنذ تلك اللحظة ، أصبح لكلمة « إيديولوجيا » معنى سيء ، فلم يعد يطلق على الفيلسوف لفظ « إيديولوجى » إلا حين تصطبغ فلسفته بطابع مذهبى ينأى بها عن الحقيقة ، ويضفى عليها صبغة لا واقعية . ومعنى هذا أن الفكر الإيديولوجى قد أصبح بمثابة تأملات وهمية لا تنصب على الواقع ، وكأنما هو مجرد مذهب لا واقعى (irrèelle) تكذبه شهادة الوجود الخارجى . وهكذا درج الاستعمال على تسمية أى تفكير باسم « إيديولوجيا » حين يجىء هذا التفكير — من وجهة نظر الحياة العملية — تافهاً أو عديم الشأن ، على اعتبار أن المحك الأوحد لقياس قيمة الفكرة إنما هو النشاط العملى .

ثم جاء ماركس K. Marx (١٨١٨ — ١٨٨٣) فوضع كلمة « إيديولوجيا » فى مقابل « وقائع اقتصادية » ، ونسب صفة « الإيديولوجية » إلى كل ما هو متصوّر عقلياً ، سواء أكان عقيدة دينية ، أم مذهباً فلسفياً ، أم إيماناً أخلاقيًّا ..... إلخ . وهكذا أصبحت « الإيديولوجيات » عبارة عن تبريرات منطقية لبعض أساليب التفكير والسلوك ، وصارت كلمة « إيديولوجيا » تنطوى على معانى الأسطورة ، والوهم ، واللغو الفارغ ، والتجريد البعيد عن الواقع . ولم يلبث الفلاسفة أنفسهم أن أصبحوا يستعينون بالطريقة الإيديولوجية فى تفسير آراء خصومهم ، فصار من المألوف أن تُفنَّد الأفكار بإظهار الطابع النفعىّ أو المقصد الخفىّ الذى تنطوى عليه ، وأصبحت « الإيديولوجيا » — كما يقول أحد المفكرين المعاصرين — إنما هى « الرأى الذى ينادى به خصمى »(١) !

ولكن أنصار الماركسية قد وسّعوا من مفهوم « الإيديولوجيا » ، فأصبحوا يفسرون الأفكار والمذاهب بالرجوع إلى القوى الاقتصادية وعلاقات الإنتاج ، وبذلك اعتبروا جميع الأفكار مشروطة بالمواقف التاريخية ، وصاروا يفسرون المذاهب على أنها مجرد تعبير عن الطبقات الاجتماعية . ولم يلبث علماء الاجتماع أن رحّبوا بهذا التقابل الذى وضعه

فبينما الناس قد تعلموا منذ عهد بعيد أن أجسامهم تخضع لقوانين آلية كثيرة تؤثر فى الأشياء غير الحية (كالجاذبية مثلا) فإنهم كانوا يتأثرون دائما بذلك الشعور الذى لا يمكن إنكاره، وأعنى به الشعور بأننا أحرار فى مجال الاختيار والإرادة. هذا الشعور بالحرية يبلغ من الأهمية فى التجربة البشرية حدا يجعل معظم الناس يسلمون دون جدال بأنه إذا كانت أفعالهم خاضعة للعوامل الفيزيائية، فإن إرادتهم تستطيع الاختيار على نحو يستقل عن أية سوابق. والواقع أن هذا الشعور يبلغ من القوة، ويكاد يبلغ من الشمول، حدا يجعل من العسير على أى شخص ليس لديه تكوين علمى أو فلسفى متعمق، أن يعترف باحتمال أن يكون فعله واختياره معا متحددين تماما بحوادث سابقة (هى فى العادة فعل واختيار سابقان)، شأنها فى ذلك شأن أى حادث آخر فى الطبيعة.

حرية الارادة فى مقابل الحتمية: على الرغم من أن علم النفس الحديث قد دعم وجهة النظر الحتمية بقوة، فإن الحتمية ما زالت حتى الآن فرضا لم يتم إثباته، ومن ثم فإن المجال يكون فسيحا للجدل الفلسفى حول مسألة حرية الإرادة فى مقابل الحتمية. فلما كان موقف المذهب الحتمى منفرا تماما لمعظم الأشخاص ذوى الميول الدينية أو المثالية القوية، فإن المشاعر الفلسفية تحتد حول هذه المسألة، على الأرجح، أكثر مما تحتد حول أية مشكلة أخرى فى ميدان الفلسفة، فالذهن الميال إلى المذهب المثالى يرى فى توسيع نطاق الحتمية الدقيقة بحيث تمتد إلى مجال الحياة البشرية، إنكارا لتلك القدرة التى ترى أمثال هذه الأذهان أنها هى المميزة للإنسان بحق، وأعنى بها القدرة على اتخاذ القرارات الأخلاقية. أما الحجج القوية التى يأتى بها مذهب الحتمية (وهى الحجج التى سنعرضها بالتفصيل فى فصل تال) فلا يبدو لها، فى نظر أصحاب النـــزعات المثالية الواضحة، ثم القوة ما يبرز إنكار حرية الإرادة.

على أن أيا من جانبى النـــزاع الحاد الخاص بحرية الإرادة لم يفلح فى قهر الجانب الآخر، وما زالت هذه المشكلة، على الأرجح، أكثر أبناء الفلسفة إثارة للضجيج وللمتاعب. ولكن هناك على الأقل احتمالا فى أن يؤدى تطور علم النفس إلى تسوية نهائية لهذه المسألة القديمة العهد. ولو حدث ذلك لكان هذا يوما سعيدا لأمها الفلسفة؛ إذ أن هذا سيثبت مرة أخرى رأيها القائل إنه ليس كل أفراد ذريتها حالات مستعصية يستحيل تقويمها. ولا جدال فى أن الفلسفة سوف يسعدها التخلص من هذه المشكلة؛ إذ لا توجد من المشكلات ما أثارت من المتاعب بقدر ما أثارت هذه.

❁ ❁ ❁

بذاته ، ولكننا سرعان ما نتبين أن تلك « الحرية » التى نتمتع بها (بوصفنا موجودات حرة مستقلة) إن هى إلا منحة قد جادت بها علينا قوة متعالية ، ولهذا يقول يسبرز Jaspers إن الإنسان الذى يشعر بحريته شعوراً حقيقياً إنما يزداد يقينا بوجود الله ، لأن الحرية والله حقيقتان متصلتان لا تقوم الواحدة منهما بدون الأخرى . ومعنى هذا أن شعورنا بالحرية من شأنه أن يظهرنا على أننا قد منحنا لأنفسنا على سبيل الهبة أو العطية أو الهدية ، وكأننا بأكملنا مجرد منحة من قبل الحقيقة المتعالية أو القدرة الإلـهية ! ومن هنا فإننى كلما ازددت شعوراً بحريتى ، ازددت فى الوقت نفسه يقينا بوجود الله ، إذ أشعر عندئذ بأننى لست حراً من ذاتى أو بذاتى ، بل بفضل تلك الإرادة العليا التى شاءت لى أن أفصل فى حياتى بمقتضى إرادتى ! وهكذا قد يكون فى وسعنا أن نقول مع يسبرز إن « الله » لا ينكشف للإنسان كموضوع للدراسة أو المعرفة أو البرهنة ، وإنما هو ينكشف له من خلال تجربة « الحرية » التى ترتبط بوجوده الحقيقى (من حيث هو موجود يختار ذاته بذاته)[1] .

ولكننا حتى إذا لم نأخذ بهذه النظرة الميتافيزيقية الخاصة التى تربط بين الله والحرية ، فإننا لن نجد صعوبة كبيرة فى أن نلمس تهافت النزعات الإنسانية المتطرفة التى تنادى بالاكتفاء الذاتى للإنسان . وكأن ليس ثمة شىء يمتد فيما وراء عالم التجربة البشرية الناقصة . وحسبنا أن ننظر إلى كل تلك المحاولات التى يبذلها الإنسان من أجل الوصول إلى تحقيق رغبته فى السيطرة على الكون ، وإشباع حاجته إلى التمتع والتوسع والامتداد بالذات ، لكى نتحقق من أن كل تلك المحاولات اليائسة إنما تزيد من عرام إرادته ، وتضاعف من حدة نهمه ، وتباعد بينه وبين حاله الاكتفاء الذاتى ، والواقع أن نزوع الإنسان لا يحد ، كما أن حاجات الإرادة البشرية لا يمكن أن تسد ؛ وهذا هو السبب فى أن « السأم » كثيراً ما يستبد بنا ، حينما نتبين أن لا سبيل إلى إشباع ما لدينا من حاجات لا متناهية ، ومطالب لا حصر لها . ولكن هذا السأم المتولد عن الحياة إنما يعبر عن ضيق الإنسان بالحياة الطبيعية المتغيرة ، ونزوعه إلى حياة أسمى لا يملك سوى أن يحن إليها بكل جوارحه . وإذا كان الفعل الإنسانى كثيراً ما يصدم بصخرة الفشل ، بل إذا كان الموجود البشرى كثيرا ما يشعر بخيبته ونقصه وعدم كفايته ، فليس هذا وليد فقر وعوز واحتياج ، وإنما هو تعبير عن فيض الرغبات ووفرة النزعات ، مما يشعر معه الإنسان بأن نطاق الحياة

---

(1) Karl Jaspers : « Introduction à la Philosophie », Plon, 1952, pp. 55 – 57.